كلمة الكنيسة الأرثوذكسيّة
إيمان * فرح * كرازة

المشرق

تصدر عن بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق – السنة السادسة والعشرون – العدد الأول – ٢٠١٧

القدّيس
إغناطيوس
الأنطاكي

الصليب
من العهد القديم
إلى العهد الجديد

البطريرك
أفتيميوس كرمه

الحياة الزوجيّة
ونعمة الصبر

جنود النور

تاريخ وتراث

البطريرك أفتيميوس كرمه

بطريرك أنطاكية ١٥٧٢-١٦٣٥

د. إيلي ضناوي

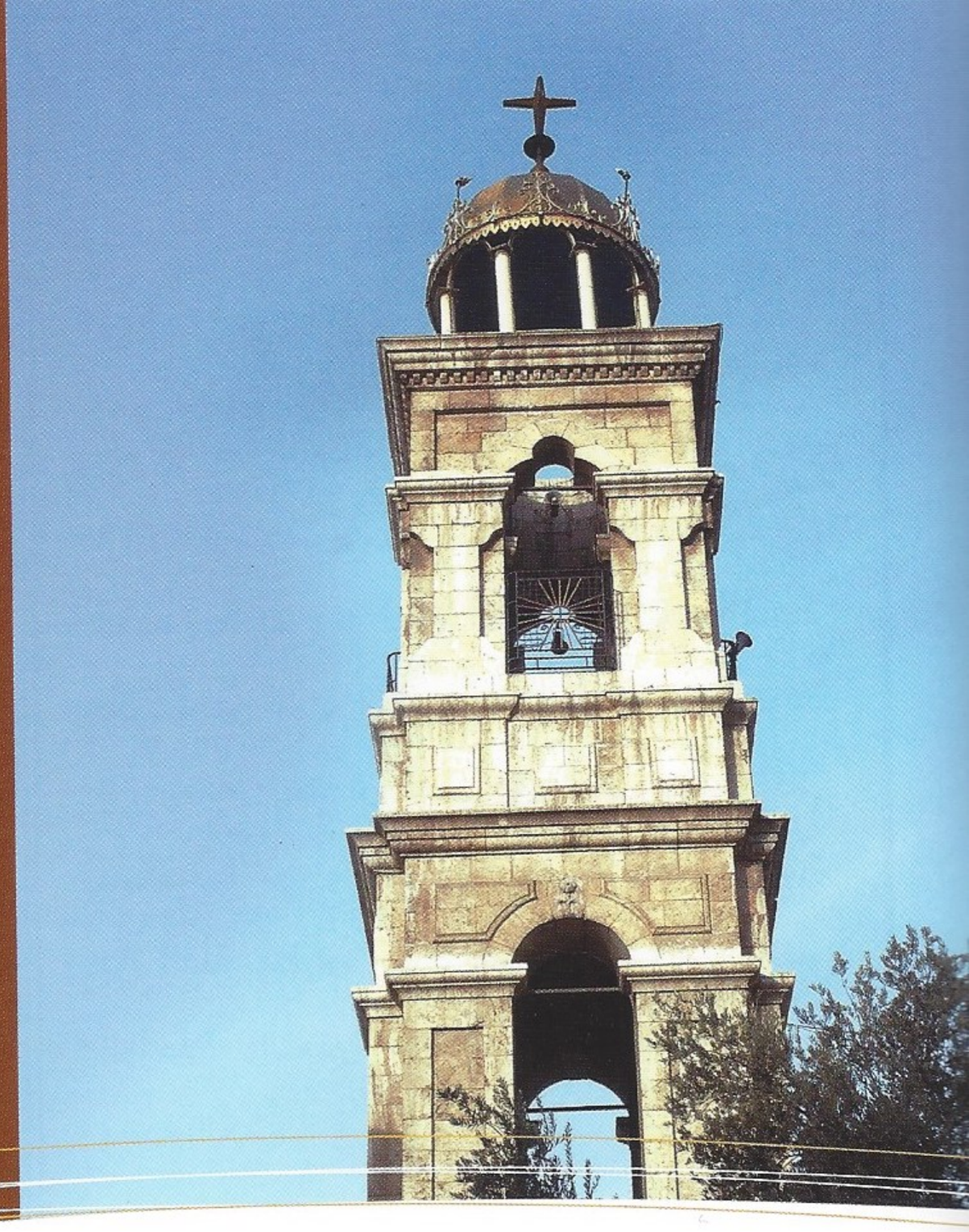

تشكّل فترة الحكم العثماني في الشرق (١٥١٦-١٩١٩) الإطار الأبرز، الذي أثّر في حياة الكنيسة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة في القرن العشرين، والذي ما يزال صالحًا، في الكثير من الأحيان، لفهم أعمق لواقعنا الأنطاكي اليوم. لقد شهدت هذه القرون الأربعة تشكّل أنماط وأطُر جديدة للعلاقة بين الكنائس الأرثوذكسيّة ضمن منظومة «الملّة». لكن، للأسف، لم تكن هذه العلاقات دائمًا منسجمة مع الأسس اللاهوتيّة والقانونيّة التي توطّدت في الألفيّة الأولى.

أمّن الحكم العثماني بيئة ملائمة لعمل الإرساليّات الغربيّة ضمن معادلةٍ متشعّبة ومعقّدة، تتداخل فيه السياسة والاقتصاد ومصالح الدول العظمى. بالمقابل، إذا ما قارنّا وضع المسيحيّين خلال هذه الحقبة بما آلت إليه أوضاعهم إبّان الحكم المملوكي الذي دام ٢٥٨ سنة، لا بدّ من الاعتراف بأنّ الكنيسة، برّغم الظّلم الذي لحق بأبنائها هنا وثمّة، تأثّرت إيجابًا على أكثر من مستوى، لعلّ أبرزها استرداد حيّز كبير نسبيًّا من قدرتها على الاضطلاع بدورها الرعائي بمعناه الأشمل.

لن تستطيع هذه الصفحات القليلة أن تفي الموضوع حقّه، لذلك ستحاول تسليط الضوء على بعض من جوانب واقع هذا البعد الرعائي في حياة الكنيسة الأنطاكيّة إنطلاقًا من أنموذج من القرن السابع عشر، ألا وهو البطريرك أفتيميوس كرمة (١٥٧٢-١٦٣٥).

برزت في القرن السابع عشر ثلاث شخصيّات كنسيّة كان لها أثرٌ كبير في التأسيس لأداء نهضويّ إصلاحي في الكنيسة الأنطاكيّة الأرثوذكسيّة. كان هذا الأداء قد تراجع بسبب الاضطهاد والظلم اللذين لحقا بالمسيحيّين في هذا الشرق. هذه الأعلام هي: ملاتيوس كرمة المطران على حلب (١٦١٢-١٦٣٤) وبطريرك أنطاكية لاحقًا (١٦٣٤-١٦٣٥)، البطريرك مكاريوس ابن الزعيم (١٦٤٧-١٦٧٢) والبطريرك أثناسيوس دبّاس (١٦٨٥-١٦٩٤ و ١٧٢٠-١٧٢٤). لقد قارب كلّ واحد منهم القضيّة الواحدة من زاوية مختلفة. اعتبر البطريرك أفتيميوس أنّ الحاجة الكبرى هي عودة المؤمنين إلى الكنائس، لذلك قال «بالإصلاح الليتورجي» وعمل على إعادة ترجمة الكتب الطقسيّة. كما رأى، منذ اقتباله سرّ الكهنوت، ضرورة افتقاد المؤمن ورعايته على جميع الصعد، لذلك نراه ناشطًا في أعمال الرحمة وحاملاً لهموم رعيّة وهواجسها.

رأى البطريرك مكاريوس أنّ إزاحة العبء المادي (النّاتج عن الضّرائب المفروضة على المسيحيين بموجب نظام الملّة) عن كاهل المؤمنين هو مسؤوليّة الكنيسة التي ترعى أبناءها. لذلك نراه يقوم بالأسفار الطويلة طالبًا مساعدة إخوته في «بلاد المسيحيين» ما وراء الدانوب. إلاّ أن البطريرك مكاريوس لم يُهمل البُعد التعليمي، إذ نراه يجهد في التعريب والتأليف.

أخيرًا، يرى البطريرك أثناسيوس دبّاس تطوّر الطباعة في الغرب فرصة مؤاتية يجب أن تستفيد منها الكنيسة، فأسس أوّل مطبعة عربيّة في الشرق في مدينة حلب، ليطبع فيما بعد ما يحتاجه أبناؤه من كتب طقسيّة وتعليميّة، في مقدّمتها الإنجيل المقدّس بطبعتين، الأولى للاستخدام الفردي في المنازل والثانية للاستخدام الليتورجي في الكنائس.

السيرة

هو عبد الكريم كرمه، ابن الخوري حوران. وُلد في حماة السنة ١٥٧٢م. لمّا صار له من العمر ٢٩ عامًا، ترهَّب في دير القديس سابا بالقرب من القدس ما أتاح له تعلّم اللغة اليونانيّة وإتقانها. لكنّ أهل حماة استدعوه وألحّوا عليه بالعودة إلى وطنه، بعد أن أمضى في الدير سنتين، لكي يستفيدوا من وعظه وإرشاده. فرسَمَه سيماون بن القلّة مطران حماه شمّاسًا إنجيليًّا، في نحو الواحدة والثلاثين من عمره، ثمّ كاهنًا، فبقي يخدم الكنيسة في حماة حتّى سنة ١٦٠٨م.

في العام ١٦٠٨م، ذهب الكاهن ملاتيوس إلى حلب ليحلّ مسألة الجزية في ما يتعلّق بأهل حماة. أثناء إقامته في حلب لهذا الغرض، تضرَّعَ إليه أهلها أَنْ يَعِظَهُم فأقام عندهم مدّة طويلة يفعل هذا. انتدب أهل حلب برضا الكهنة ملاتيوس ليكون مطرانًا عليهم، وذهبوا به إلى دمشق، وشرطنه البطريرك أثناسيوس الثاني دبَّاس، مطرانًا على حلب في ١٢ شباط ١٦١٢م، وأسماه ملاتيوس.

في السنة ١٦٣٤ توفّي البطريرك إغناطيوس الثالث عطيّة، فاتّجهت الأنظار إلى ملاتيوس مطران حلب لكي يخلفه على السدّة البطريركيّة. ذهب الدمشقيّون إلى حلب، واصطحبوه إلى دمشق، وشرطَنَهُ رؤساء الكهنة بطريركًا في ١ أيار السنة ١٦٣٤م، واتّخذ له في البطريركيّة اسم أفتيموس. لم يشغل ملاتيوس السدّة البطريركيّة إلّا ٨ أشهر، من شرطنته حتّى ١ كانون الثاني السنة ١٦٣٥م.

أضواء على دور البطريرك أفتيميوس كرمة النهضوي

سنحاول في ما يلي إبراز بعض من مساهمات البطريرك أفتيميوس النهضويّة في مجالي الرعاية والإصلاح الليتورجي:

في الرعاية:

- نصرة المظلوم: مسألة الجوالي في حماة
- تنظيم أعمال الرحمة: دوره في أبرشيّة حلب
- مستلزمات الحياة في المسيح: ضبط التصرفات الاجتماعيّة للرعيّة

في الإصلاح الليتورجي

- مراجعة الترجمات المستعمَلة في زمنه

في الرعاية

نصرة المظلوم: مسألة الجوالي في حماة

في العام ١٦٠٨م، ذهب ملاتيوس، وكان كاهنًا في حماة، إلى حلب، ليُسقط عن أهل مدينته عدّة أسماء من دفتر السلطان (دفتر الجوالي)، أي ليثبت أنّ عدد الأشخاص المكلَّفين بالجزية من الكنيسة في حماة في الواقع أقلّ ممّا هو مدوَّن في سجلّات الدولة العثمانيّة، وعلى ذلك يتعيّن تخفيض مقدار الجزية المترتّبة على الطائفة جماعيًّا، والتي كانت السلطة الدينيّة مكلَّفة بجمعها ودفعها تحت طائلة أقصى العقوبات. كانت المسألة حينها أنّ الجوالي (وهو جمع جالية) هم السكّان الذين جَلَوا أي نزحوا عن حماة وسكنوا الجهات الأخرى، فبقيت أسماؤهم مدوّنة في سجلّات الحكومة التي كانت تتقاضى عنهم هذه الضرائب على الرؤوس وهم غائبون أو متوفّون. فقابل ملاتيوس الوزير، الذي كان في حلب حينذاك، واستطاع عن ينزّل هذه الضرائب الإضافية التي أثقلت كاهل الرعيّة.

تنظيم أعمال الرحمة في حلب

ما أن تسلّم المطران ملاتيوس زمام أبرشيّة حلب حتّى ابتدأ بالعناية بذوي الحاجات، فنظّم الأمر وكتب أسامي كل الفقراء والعميان والمقعدين والأرامل والأيتام في دفتر، وجعل لهم في كلّ يوم أحد وعيد مساعدة معيّنة، وأقام لإتمام هذا الأمر وكيلاً. كانت مهمّة الوكيل أن يجمع من المؤمنين، في كل يوم أحد وفي كلّ عيد، مبلغًا من المال، وبعد القدّاس كان يذهب إلى أصحاب الأسماء المدوّنة في الدفتر المذكور، ويعطي كلَّ واحد منهم ما هو مرتَّب له: مالاً، في بعض الأحيان لحمًا وخبزًا وفواكه وأطعمة أُخرى، وفي الشتاء كساء وفحمًا للتدفئة. ومن مهمّات هذا الوكيل أيضًا أن يفتقد المرضى بما يحتاجونه، ويستأجر بيوتًا لسكنى الذين لا بيوت لهم. وكان للغرباء والواردين إلى المدينة وكيلٌ آخر يهتمّ بشؤونهم.

ضبط التصرفات الاجتماعيّة للرعيّة

شرع في تزويج البنات والعُزَّب، خاصّة بنات الفقراء واليتامى، فيقرنهنّ بشبّان لائقين بهم في العمر والمرتبة. كما أبطل ذلك النقد الكثير الذي كان مرسومًا للبنات (مهر البنات) وهو المبلغ من المال الذي كان يتوجّب على الشباب تقديمه بائنة للزواج إلى البنات. ألغى عوائد الأعراس كالعراضات، والغناء، والولائم وتناول الـمُسكِرات واللّهو بهذه المناسبات، وأمر بأن تكون الأعراس بالبركات والصلوات في الكنائس. أبطل كلّ الأمور التي من شأنها أن تعيق الزواج من الناحية الاقتصاديّة، ومنع النساء من الابتذال في التبرّج واللباس، وأمر الرجال أن لا يسرفوا في النفقة على المآكل والمشارب والملابس، بل أن يوفّروا كلَّ يوم مبلغًا من أتعابهم من أجل إيفاء ديون المسيحيين. وأمر العلمانيّين باجتناب السُّكْر.

في الإصلاح الليتورجيّ

كان ملاتيوس يجيد العربيّة واليونانيّة والسريانيّة. ركّز نشاطه الأدبي خصوصًا على إعادة ترجمة النصوص الطقسيّة القديمة من اليونانيّة إلى العربيّة. لكن له أيضًا تآليف متعدِّدْ في مواضيع دينيّة وتاريخيّة، كما أنه نسخ عددًا من المخطوطات القديمة، فأسهم في إيصالها إلينا.

مراجعة الترجمات الطقسيّة المستعمَلة في زمنه

يظهر همّه الليتورجي في هذا النصّ من مقدّمته لكتاب الميناون: «أما بعد فإني لمّا رأيت اختلاف كنائس المسيحيين في الترتيب والطقس والنظام. وما قد أبطلوه من فرائض الكتب المحقّة الصادقة وما قد أثبتوه من عوايد المخالفين وسنن الأراتقة... فلم أزل أفحص عن أصل مخالفتهم فحصًا شافيًا وأبحث عن علّة تعليمهم بحثًا كافيًا حتّى وجدت أصل هذا الغلط. وعلّته عدم وجود تيبيكون رومي قديم. فلمّا وجدت تيبيكون تأليف القديس سابا العظيم، الذي كمله القس يوحنا الدمشقي الحكيم، فبالغت أنا الحقير ملاتيوس بالكد والجهد والطلب وأنا يومئذ مطران مدينة حلب، فأخرجتُه من اللغة الرومية إلى لغة الأعراب وذلك بتاريخ سنة ٧١٢٠ لكون الدنيا الموافق ١٦١٢ لتجسّد سيدنا يسوع المسيح».

يظهر جليًا من هذا النص الوضع الذي آلت إليه حالة المسيحيين. فعلى سبيل المثال، يشير عَلَمُنا إلى تسلّل عناصر وعادات وممارسات غريبة إلى الكنيسة وكتبها. ربّما كانت الوسائل والظروف المُتاحة أمامه في ذلك العصر لمواجهة أسباب هذا الأمر غير متوفّرة أو، في أفضل الأحوال، غير كافية بسبب ما أشرنا إليها في المقدّمة. لذا، نراه يلجأ إلى العمل من داخل الكنيسة لإحداث واقع تغييري من دون أن يقع في حلقة مفرغة مركزها الاستسلام والإحباط.

بهذا الهمّ ذاته أعاد ترجمة كتاب «تفسير أناجيل الآحاد والأعياد على مدار السنة»، الذي كان قد جمعه عبد الله ابن الفضل الأنطاكي عن مواعظ القدّيس يوحنا الذهبي الفم، ونقله إلى العربيّة. في سنة ١٦١٢ أنهى إعادة ترجمة «كتاب اللتيورجيكون»، الذي يتضمّن قدّاس الذهبيّ الفم وباسيليوس الكبير والبروجيازمينا، مع صلاة الغروب والسحر، وقد وصل إلينا عبر عشرات المخطوطات. في السنة عينها أنهى إعادة ترجمة «كتاب استشراري الترتيل والتلحين»، الذي بَلَغَنا كذلك في مخطوطات عديدة. في الوقت عينه أَعاد ترجمة سنكسارات «الميناون»؛ وأتمّ ترجمة «كتاب تيبيكون الطقوس الكنسيّة»، ومنه نسخ عديدة في مختلف مكاتب العالم. قبل سنة ١٦٢٨ أعاد ترجمة كتاب الأورولوجيون، أي السواعي. وفي سنة ١٦٣٣ أعاد ترجمة «كتاب الأفخولوجيون، الصلوات والطلبات التي يحتاج إليها الكاهن في سائر الأوقات».

خاتمة

ممّا لا يقبل الشكّ أنّ البطريرك أفتيميوس كان يحمل مشروعًا متكاملاً لرعيّته توالت فصوله في مراحل خدمته الكنسيّة مذ كان كاهنًا مرورًا بالأسقفيّة ووصولاً إلى البطريركيّة. إنّ العنصر الذي يسكب في هذه السيرورة الوحدة والتماسك إنّما هو ذاك العمق الإيماني المترسّخ في تعاليم الإنجيل، الذي استطاع البطريرك أفتيميوس أن يكون شاهدًا له. نشير أخيرًا إلى أنّ العديد من المسائل التي تناولها هذا البطريرك ما تزال قائمة في كنيستنا اليوم، رغم تغيّر الظروف والأوقات، إلاّ أنّه، بالمقابل، تزداد القناعة بحاجتنا دائمًا إلى هذه المقاربة الإنجيليّة البسيطة والفعّالة بآن واحد.